السيكلوجية
واتجاهاتهاوطرقها القديمة والحديثة *

السيكلوجية ـ كعلم مستقل ـ دراسة حديثة ، وإنْ كانت النفس من الموضوعات التى جذبت الإنسان إلى التطلع إليها من قديم الزمان ، وقديمًا اكتُفى باعتبارها من الفلسفة الطبيعية .

من طاليس إلى سقراط

يغلب على الفلسفة قبل عهد سقراط الميل الكُلِّى نحو الطبيعيات والإهمال الظاهر للنفس ، على أن التمييز بين النفس والجسم قديمٌ جدًّا ، هدى الإنسان إليه الموت ، ولكنه كان ساذجًا بطبيعة الحال فى إدراك كنهه ، فظن النفس نسمة تتسرب من الفم أو الجروح ، ولم تَسْمُ آراء الفلاسفة الأقدمين عن هذه الظنون إلا قليلاً ، فلم يكن العدد عند فيثاغورس ولا الوحدة عند الإليين ماهياتٍ روحية مجردة ، ولكن جواهر مادية تتركب منها الأجسام .

والحق أن خلق علم النفس يستدعى أنْ يسبقه توجّه عناية الإنسان نحو نفسه بحيث لا تستغرق الطبيعة كلَّ انتباهه ، ونحن نستطيع أن

* المجلة الجديدة ، مارس ١٩٣٥م .

نلاحظ ميلاً عامًّا نحو التفكير الذاتى فى الحياة العقلية الإغريقية متدرجًا نحو التقدم شيئًا فشيئًا من عهد طاليس حتى زمن السوفسطائيين .

ففى الفن سار الشعر من الملحمة إلى الشعر الغنائى إلى الشعر التمثيلى أو الدرامة . والدرامة بدأت بتراجيديا البطولة ، ثم التراجيديا الدينية ، وأخيرًا التراجيديا السيكلوجية .

وفى السياسة خلفت الديموقراطية التى تقوم على حرية الفكر الأرستقراطية التى تعيش على التقاليد ، أما فى الفلسفة فقد اتفقت كلمة فيثاغورس وهيراقليط والإليين والذريين على أن الحواس لا تكفى لجلاء وجوه المعرفة الحقة ، وهو نقد نفسى من غير شك . حتى مَيَّزَ أنكساجوراس بين المادة والعقل ، وكأنه تصور العقل كقوة من قوى الطبيعة ، فلما جاء السوفسطائيون رأوا صلةً بين العقل الخالق وعقل الإنسان .

وجميع هذه محاولات قيمة جدًّا ، إلا أن سقراط هو أول من جعل من امتحان النفس منهجًا فلسفيًّا قائمًا بذاته ، فهو الذى رجع إلى نفسه وخَصَّها بجُلّ اهتمامه ، ولكن لا يجوز أن نعده من الذين حاولوا أن يخصصوا للنفس البشرية علمًا قائمًا بذاته ؛ كان يرى أن معرفة النفس هى كل المعرفة ، فهى تهدينا إلى قوانين الفكر وقواعد الأخلاق ؛ فالمعرفة النفسية هى معرفة بالمنطق والحق فى نفس الأمر .

أفلاطون

وأفلاطون له فلسفة شاملة تشمل كل شيء ، تقوم منها النفس مقام العضو من الجسم ، وهى تُدْرَس بين موضوعات علم الطبيعة ؛ فبين عالم المحسوسات يوجد وسط هو نفس هذا العالم ، وهى مبدعة النظام والحياة والمعرفة الإنسانية ، ومنها تنبع جميع النفوس الجزئية كنفس الإنسان والحيوان ، « فعلم النفس » لم يوجد عند أفلاطون ، وإن كان هذا لا ينفى اشتغاله بأبحاث نفسية رائعة ، فقد فَرَّقَ بين النفس والجسم، وعرف فى النفس ثلاثة أجزاء تستقر فى الرأس والصدر والبطن، وتكلم على درجات المعرفة الثلاث ، وشرح أنواع الحب ، ونظرية اللذة ، والمعقول والمحسوس . بحث كل ذلك إما فى الطبيعة وإما فيما وراء الطبيعة .

أرسطوطاليس

وهو أول مَن وَجَّه عناية خاصة إلى الظاهرات النفسية كما نلاحظ فى مجال شعورنا ، وكان يرى فى الفلسفة دائرةَ معارفٍ علمية تتحد مبادئها وتختلف موضوعاتها ؛ وعلم النفس هو فرع من فروع علم الطبيعة الذى يقوم على أساس الميتافيزيقا ، ومنهجه التحليل والتجربة ، ولكن روحه مستمدة مما وراء الطبيعة .

ولم يكن كأستاذه أفلاطون يعتقد بوجود نفس للعالم كأنه حى من

الأحياء ، ولكنه كان يسلم بوجود النفوس الجزئية للنبات والحيوان والإنسان ، والنفس عنده أصل الحياة ، وهى فى الإنسان أنواع : غذائية وحسية وإرادية وعقلية ، والنفس العاقلة تكاد تكون نفسًا مستقلة بذاتها؛ وهو إلى ذلك له دراسات نفسية قائمة بذاتها عن الإحساس والذاكرة والنوم وغيرها .

الأبيقورية والرواقية والأفلاطونية الحديثة

المدرسة الأبيقورية ترمى من وراء فلسفتها إلى تمهيد السبيل لعلم الأخلاق ، لأنه الوسيلة المباشرة للحياة السعيدة التى تبغيها ، ولذلك فعلم الطبيعة يتبع علم الأخلاق ويهيئ له ؛ ولما كانت السيكلوجية قسمًا من الطبيعة ، فحقائق تلك مبنية على هذه ، ومن أجل هذا نجد أن نظرية المعرفة الحسية تقوم على أساس النظرية الذرية فى الطبيعة ، وأن قولهم بالحرية يتبع قولهم بالحركة غير المعللة .

وللرواقيين نفس النزعة العملية التى تجعل من كل الفلسفة تابعًا للأخلاق ، والسيكلوجية عندهم من علم الطبيعة . كانوا يرون أن العالم حى . . جسمٌ منتظم ، نفسُه هى الله ، ولكنّ التمييز بين النفسانى والجسمانى ظل غير قائم على أساس فلسفى متين ؛ والإنسان نفسٌ وجسمٌ ، ونسبة النفس إلى الجسم كنسبة نفس الله إلى الوجود . هى مظهر إرادته وقوته .

أما الأفلاطونية الحديثة فتغلب عليها الصفة اللاهوتية ، فهى تؤمن بأن للوجود نفسًا ، وهى تُجارى فى ذلك الرواقية وأفلاطون من قبل ، وكأنها ترى أن هذه النفس هى ثالث الثالوث المقدس ، وهذه النفس تشمل جميع النفوس الجزئية ، ولو أنها لا تدرى من أمر اختلاقها شيئًا ، فعلم النفس البشرية ينطوى فى علم النفس الدنيوية ، وأصوله فى علم الكون .

من كل ذلك نفهم أن السيكلوجية ـ كعلم خاص بالنفس البشرية ـ لم توجد فى العصور القديمة ، وإنْ قارب ذلك عند أرسطوطاليس ، لأنه اعتنى بدراسة الظاهرات النفسية فى ذاتها ، بينما كان الفلاسفة الآخرون يدرسونها عن طريق الطبيعة أو اللاهوت أو ما وراء الطبيعة ؛ وقد خطا خطوةً لا بأس بها فى هذا السبيل القديس أوغسطين ، فقال إن موضوع الفلسفة هو معرفة الله والنفس ، وأنه لكى نعرف النفس يجب أن ندخل فيها لا أن نتجه بعيدًا عنها ، وكان فى مؤلفاته الأخيرة مالَ لإتْباع السيكلوجية للاهوت ، وبذلك أرهقها بأسئلة تستعصى على كل حل .

تجىء بعد ذلك العصور الوسطى ، وهى عصورٌ سَكَنَ فيها العقل إلى التقليد ونَفَرَ من الإبداع ، فإنْ وُجِدَ فيها طريفٌ فهو حيث تلهم المسيحية عقول بعض المفلسفين ؛ ونستطيع أن نقول إجمالاً إن الفلاسفة حينذاك وَجَّهُوا جُلَّ همهم إلى تفسير سيكلوجية أفلاطون وأرسطوطاليس والقديس أوغسطين تفسيرًا لاهوتيًّا ، فمنهم مَن بَعَثَ نظرية « نفس

الكون » التى قال بها أفلاطون والرواقيون من بعده ، ومنهم مَن دعا إلى الاجتهاد والتأمل بُغْيَةَ السموّ إلى مرتبةٍ تتجلى فيها الحقيقة للقلب ، وكثيرٌ مثل هذا مما لا يخرج عما حددنا ، ولم يُضِفْ إلى عالم الفكر شيئًا خطيرًا .

المدرسة الديكارتية

خُتِمَ عهد الجمود بديكارت الذى نشر فى عالم الفكر رُوحًا جديدًا لم ينحلّ من أثره فيلسوف ممن أتوا بعده . وقد بدأ ديكارت فلسفته بالشك فى كل شىء ، حتى اصطدم بنفسه فألقاها فوق كل شك ، فجعل منها دعايةَ اليقين ، فهل يُعتبر مؤسسَ علم السيكلوجية كعلم يبحث الظاهرات النفسية ؟

لقد درس الأفكار ، ومَيَّزَ منها ما هو راجع إلى الحس ، وما هو من صنع الخيال ، وما هو بديهى فى نفوسنا ؛ وقد تكلم عن الدور الذى تلعبه الإرادة فى بلوغ الحقيقة أو التورّط فى الأخطاء ، وقد قال كثيرًا عن أخطاء الحواس ، ولكنه كان فى كل ذلك ميتافيزيقيًّا فى الوسيلة والغاية .

إلا أن ذلك لا يغير آثار هذه الحقيقة ، وهى أن شك ديكارت مَهَّدَ السبيل أمام الفلسفة الحديثة والسيكلوجية الحديثة ؛ فقوله بأن النفس هى الحقيقة الأولى واهتمامه بها كل الاهتمام ، مهد لعلم النفس التجريبى عند لوك الذى طمع فى معرفة حدود المعرفة الإنسانية عن طريق دراسة العقل ، وفى كتابه عن الشهوات والعواطف مَهَّدَ لعلم الفسيولوجيا الذى يفسر الظاهرات النفسية بالميكانيكية العصبية .

وكان ملبرانش أقرب إلى السيكلوجيين من أستاذه ، لأنه كان يقول ـ على العكس من ديكارت ـ إن النفسَ أعسرُ على الفهم من الجسم لأنها لا تخضع للمناهج الرياضية ، وعلى ذلك فلا غِنَى عن استعمال التجربة لفهم علم النفس ، وبذلك أبعده كثيرًا عن الميتافيزيقا ؛ ودراسات ملبرانش للخيال والذاكرة والعلل الاتفاقية تجعل منه ممهدًا لمدرسة التداعى .

وسبينوزا يتفق مع ملبرانش على رأيه فى غموض النفس ، وكان يقول إن معرفتها لا تجىء عن طريق التأمل الباطنى ، ولكنِ استنتاجًا من طبيعة الله ؛ فالإنسان ليس عالمًا مستقلاً فى عالم الوجود ، ولكنه جزء قائم فيه ، يسرى عليه ما يسرى على المجموع من القوانين ؛ وكما عرفنا الله نستطيع أن نعرف النفس ؛ وكتابه « الأخلاق » يحوى أبحاثًا شائقةً عن الـمـَلَكات العقلية والظاهرات الحسية .

ليبنتز

لهذا الفيلسوف نظام فلسفى عام استلهمه من تصوره للنفس ، فكأن السيكلوجية كانت كما اعتمد عليه فى تأليف الميتافيزيقا : فالوجود عنده مركب من جواهر نفسية ، تندفع بقوة ذاتيـة ؛ ولكنه كان ميتافيزيقيًّا ، لا يدرس جزءًا إلا من حيث علاقته بالمجموع ؛ وقد كتب مقالةً عن العقل البشرى ، وقد تتبع لوك خطوة بخطوة ، وإنْ فَسَّرَ ملاحظاته بالميتافيزيقا .

جون لوك

أما لوك فهو مؤسس السيكلوجية التجريبية كعلم للظاهرات الباطنية، وقد طبق المنطق الاستقرائى فى دراسة العقل البشرى ، فأنشأ أسلوبًا فكريًّا فى السيكلوجية بقى ملازمًا لها إلى ما شاء الله ، وقد فصل السيكلوجية عن الطبيعة وعن الميتافيزيقا ، فهو فى دراسته العقلَ لا يعمد إلى السؤال عن ماهية النفس أو طبيعتها ، ولكنه يكتفى بالبحث عن التغيرات التى تحدث فى النفس أو فى الجسم ، وتنشأ عنها الإحساسات أو الأفكار .

دافيد هيوم

تبع لوك فى طريقة الملاحظة الداخلية ، وقَدَّرَ ما يعترضها من الصعوبات ، فإنه يكاد يتعسر علينا فى أثناء الملاحظة أن نعرف مواضع الاتصال والانفصال فى الظاهرات المختلفة ، وكذلك يشق علينا أن نقف طويلاً متمعنين عند ظاهرةٍ بذاتها ، ولابد لنا من إلهام سامٍ يذلل لنا المُغْلَق حتى تتضح الحياة النفسية ؛ ولم يكتفِ بكل ذلك ، بل حاول أن يعرّف المبادئ التى تسيطر على النفس وتتحكم فى ظاهراتها ، ولا داعى لليأس من ذلك ، فقد كان الفلك علمًا وَصْفِيًّا فآل إلى علمٍ كاملٍ يكتشف القوانين الفلكية ؛ وظن هيوم أنه ظفر بهذا المبدأ العام فى قانون التداعى الذى صنعه على مثال قانون الجاذبية فى عالم الطبيعة ، وعلى ذلك فهو مؤسس السيكلوجية التداعية ؛ ويمثل هذه النزعة أيضًا

توماس ريد ، وهو من المدرسة الأيقوسية التى حررت السيكلوجية من الميتافيزيقا ومن المنطق أيضًا ، وهو ما يمتاز به عن لوك وهيوم ، لأنهما بقيا يعتبران السيكلوجية وسيلةً لتحديد العقل البشرى ، وكان توماس ريد يفهم من معنى النفس ما يفهمه لوك ، فهى ما يتذكر ويفكر ويريد فينا ، وهى ما تُعرف خواصه دون ماهيته ، والطريق إلى هذه المعرفة هى الملاحظة .

المدرسة الفرنسية

من فلاسفتها روبيه كولارد وجوفروى ، ويمكن عدهما من المدرسة الأيقوسية لأنهما لم يضيفا إليها شيئًا جديدًا ذا خطر ؛ أما فكتور كوزان فقد اتسعت آفاقه لاتصاله بالألمان ، وتأثر بهم تأثرًا ظاهرًا ، وقد اعتبر السيكلوجية وسيلة ، لأنه كان يعتقد أنه من دراسة الظاهرات يمكن أن يصل إلى معرفة أصلها النفسى ، ومن هذا الأصل يهتدى إلى معرفة الله ، فيجعل من السيكلوجية أساسًا للميتافيزيقا .

وقد اعترض مان دى بيران على هذا المنهج ، إذ قال إنه يريد أن يصل من الظاهرات إلى المبادئ ، والحق أن غاية ما يصل إليه الاستقراء هو أن يبين العلاقة بين ظاهرتين أو جملة ظاهرات ، ولكنه لا يعرف الجوهر ، وفكرته الأساسيـة تأتى من تفرقته بين كائن يعرف نفسَه بنفسه ، وشىء لا يعرف له نفسًا ولكنه يمكن أن يكون موضوع دراسة خارجية ؛ وعلى ذلك فمنهج السيكلوجية يجب أن يكون غير منهج العلوم الطبيعية ،

والخطأ الأكبر عند مَن لا يجدون ضرورةً إلى هذه التفرقة هو أنهم يخلطون بين القوى الروحية والعلل الطبيعية ، فالعلل الطبيعية معانٍ يجردها العقل من الظاهرات كالجاذبية ، ولما كانوا لا يفرقون بينها وبين القوى الروحية ، فقد قالوا إن هذه القوى الروحية مجرداتٌ أيضًا لا حقيقةَ وجوديةَ لها .

حقًّا أننا نجهل النفس المطلقة ، ولكنا نجد بين الميتافيزيقا البحتة والتجربة الخالصة وَسَطًا هو التأمل أو البداهة العقلية ، وهو يهدينا فى النفس إلى حقائق ليست ميتافيزيقية مطلقة ، وليست مجردَ مشاهدات تجريبية ؛ وكان مان دى بيران يظن أن الإرادة هى أول الحياة النفسية وأساسها ، وأنها العامل فى المعرفة .

السيكلوجية فى ألمانيا

فى إنجلترا وفرنسا وُجِّهَت المحاولات نحو مزج السيكلوجية بالفلسفة ، أما فى ألمانيا فقد بقيت السيكلوجية تابعةً للفلسفة العامة ، فلم يكن منهج كانط تجريبيًّا مثل لوك ، ولا بديهيًّا مثل مان دى بيران ، ولكنه نقدى ، وهو طريقته فى البحث الفلسفى عمومًا والسيكلوجية ضمنًا ؛ وبالنقد عرف كانط القواعد اليقينية العامة وأخضع لها الظاهرات النفسية وظاهرات العلم الخارجى على السواء ، فليس ثمة منهج خاص بالفلسفة وآخر خاص بالسيكلوجية ، فما السيكلوجية إلا تابع .

وهذا شبيهٌ فى جوهره بما نجده عند فخت وهيجل وشيلنج ، فالنفس لها مكانها الخاص فى السلسلة التى تضم إليها مختلف الكائنات ، وهى تعرف باعتبارها عضوًا فى جسمٍ عام ، فإذا عُرفت أمكن أن نستنتج من معرفتنا بها وجوه تقدمها ومظاهر نشاطها .

وكذلك أتبعها هربارت للميتافيزيقا ، وقد عرّفها بأنها ميكانيكية النفس ، ومنهجها هو المنهج المتبع فى العلوم الرياضية ، ومسألتها الأولى هى : ما هى القوانين الرياضية التى تتألف وتتنافر ظاهرات النفس تبعًا لها ؟

تغيّر موضوع السيكلوجية ومنهجها

ثم نزعت السيكلوجية إلى الانفصال التام عن الميتافيزيقا على يد خلفاء التداعيين ، مثل جون ستيوارت ميل وبين وسبنسر ؛ والسيكلوجيين الطبيعيين الألمان مثل فشنر ووندت ؛ ولم تعد السيكلوجية علم النفس ، بل كانت علم الظاهرات النفسية الباطنية وعلائقها بما يصحبها من ظاهرات طبيعية وفسيولوجية ، ولم تقتصر على أن تكون علمًا وَضْعِيًّا ، ولكنها حاولت الكشف عن القوانين النفسية ولم تُعْنَ بالقوانين إلا المعنى العلمى كما يفهمه علماء الطبيعة الحديثة ، وهجرت المعنى القديم الذى كان يجعل من القانون مرادفًا للعلة ، واتسعت آفاق البحث فلم تعد مقصورةً على ملاحظة النفس ، بل تعدتها إلى دراسات متنوعة

هى من أهم المصادر لمعرفة النفس ، كدراسة الحيوان والفسيولوجية والباتولوجية والفن والتاريخ . .

ولكن ليس معنى هذا أن السيكلوجية استغنت عن طريقة البحث الباطنى ، وكل ما فى الأمر أن الضرورة أوجبت البحث الموضوعى ، ولكن هذا لا يستكمل وجوهه إلا بالنظر الذاتى .

تأمل كيف شئت مختلف الآيات الفنية ، فإنك لن تظفر بمعرفة الإبداع الفنى وتذوُّق الجمال إلا بمعونة إحساساتك واستعدادك الفنى ، فالتأمل الباطنى هو أساس العبقرية السيكلوجية ، ولكنه هنا يعتمد على الحقيقة فى الفن والأدب والتاريخ بدلاً من الحدس والفرض .

والآن . . ما هى الاتجاهات الحديثة التى أوجبتها المناهج المختلفة الذاتية والموضوعية ؟

أما المنهج الذاتى فهو طريقة البحث السيكلوجية المعترف بقيمتها حتى عند التجريبيين ، وإنْ أنكرها بعض غُلاتهم مثل بكتزيو والمدرسة السلوكية ، وهو يصنع للموهوبين ما يصنع التحليل للمناطقة والعلماء فى أبحاثهم ، وإنْ كان فرديًّا لا تبلغ أحكامه الشمول الذى تتصف به الأحكام العلمية ، بل هو الذى يعطى التجربة قيمتها ـ كما يقول ألفريد بينيه ـ لأن النتيجة المادية لا تفيد شيئًا إلا بعد وصف الوسيط لحالته النفسية .

وقد تطور التأمل الباطنى تطورًا جديدًا على يد برجسون ووليم جيمس وجوهره ، لأنهما تحولا عن طريقة التحليل إلى التركيب ، ومن معرفة ظاهرات النفس جزءًا جزءًا إلى محاولة معرفة جوهرها دفعة واحدة كوحدة قائمة بذاتها ؛ يقول برجسون إن هذه النفس تعرف بالبداهة Intuition مباشرةً بعد أن نهجر الأساليب القديمة ونتخلص من قيود اللغة .

ووليم جيمس يقول إن ما يُعرف مباشرةً ليس هو الحالات النفسية ، ولكن هو المحتوى الكُلِّى لشعور الفرد كما ينكشف لنا فى لحظة من اللحظات ، وهى لحظة سعيدة ولا شك !

فالنفس بهذا المعنى لا تَتَأَتَّى معرفتُها إلا بمَلَكَة ميتافيزيقية ، وفى هذا رجوعٌ بالسيكلوجية إلى الميتافيزيقا ، سواء فى الطريقة ـ كما تبين ـ أو فى الموضوع ، لأن النفس أصبحت تثير الاهتمام بعد أنِ اقتصر زمنًا على البحث عن الظاهرات وقوانين ترابطها وحدوثها ؛ ومن هنا قول هاملن إن النفس صورةٌ من حقيقة الوجود ، أو قول لاشلييه إن السيكلوجية تحدد الشروط الجوهرية العامة للفكر والوجود ؛ وهذا هو الطريق الذى اتجهت إليه السيكلوجية باعتمادها الكلى على التأمل الباطنى .

أما المنهج الموضوعى فهو الذى يجذب إليه الآن أكثرية المشتغلين بالسيكلوجية ، ومنهم علماءٌ كبكترو وباولو والسلوكيين ، أهملوا البحث الباطنى كل الإهمال واعتمدوا على التجربة كل الاعتماد . . جَرِّبْ على

شخص أو حيوان فى ظروف مختلفة ولاحظ الاستجابات المختلفة ، فليست النفسية إلا هذه الاستجابات ؛ أما تصوّر شعور مستقل له كذا وكذا من الصفات ، فما هذا إلا بقية من الوهم القديم عما كان يُسمى بالروح ، وهذه الطريقة الموضوعية تلجأ أحيانًا إليها المعامل ، وهى تنتشر فى البلاد الصناعية ، وتخرج منها قُوانين غاية فى الدقة العددية ، مما شَكَّكَ كثيرين من الفلاسفة ـ كبرجسون ـ فى قيمتها النفسية .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المنهج التجريبى مفيد جدًّا لأنه يمرّن العالم على توخى الدقة التامة ، ويعوّده الصبر الطويل ، ويحذره من التعميمات السريعة ـ كما يقول ريبو .

أما التجربة بمعناها الشامل فى الباتولوجية والاجتماع فلا شك فى فائدتها ، ولا شك فى خصوبتها ، فما من حالة نفسية إلا وهى عُرضة للمرض ، فتكون من موضوعات الباتولوجية ؛ فالباتولوجية تسير جنبًا إلى جنب مع السيكلوجية ، وفهم الأمراض وتعليلها ينير ظلمات النفس ويعمقنا فى فهم الطبيعة الإنسانية ، وهذا هو الأساس الذى اعتمد عليه فرويد .

وكذلك فإن للظاهرات النفسية جوانب اجتماعية يمكن أن تُعالج منها : كيف وجدت هذه الجوانب الاجتماعية ، وإلى أى حد تؤثر فى الحالة النفسية ؟ . . وقد عكس دوركيم المسألة فقال إن الظاهرة

الاجتماعية هى الأصل ، والنفسية تُشتق منها وتتضح بها ؛ فعلم النفس الحقيقى هو الاجتماع ، والظاهرات اجتماعية موضوعيةٌ تُدرس بالملاحظة العلمية ؛ أما ما يُقال عن ظاهرة نفسية فما هو إلا محض خيال ووهم .

من ذلك كله ترى أن السيكلوجية تفرعت عن الفلسفة واستقلت بنفسها ، ثم قامت الفلسفة تحاول إرجاعها إلى حظيرتها ، وطغت عليها علوم جديدة كالباثولوجية والاجتماع ، كلٌّ يحاول أن يضمها إليه ويختارها لنفسه ويتمثلها تمثيلاً ، وما حاولت الفلسفة ذلك إلا لأنها تجد فيها ميدانًا خصبًا لأبحاثها ؛ أما ادعاءات العلوم الأخرى فهى وحى التطرف الذى لا يلبث أن يرتد على عقبيه مستردًّا مقالاته ، تاركًا ما كشف من حق ؛ وفى كل ذلك يسير العلم فى سبيله ، يستفيد من التجارب المختلفة دون أن يمكّنها من نفسه أو يسمح لها بالقضاء عليه .